(40) هذه الجزئيات بعضها لبعض يتكون التأريخ بمظاهره الماضية وتطلعاته الحالية، لإنارة المستقبل وإضاءة درب السالكين، والتأريخ لا يتألف جملة واحدة، وإنما ينجم موضوعات وصورا ومشاهد، ومن مجموعها يتشكل الأثر البارز لسمة من السمات، والقرآن إنما يعني بتأريخ الأمم والإيمان، والشعوب والهداية، فهما رمزان متلازمان، تنحصر عليه ذكر أحدهما بالآخر، حصرا عضويا ترى فيه الكون وقضية التوحيد يشكلان خطوطا رئيسية تنبثق منها حيثيات فرعية في النبوة والرسالة وعوالم الحياة. 3 ـ والرسالة المحمدية إحدى سنن الكون البنائية، وكما تقتضي سنن الكون التدرج، فهي تقتضي التدرج كما اقتضتها ابتداء بخلق السماوات والأرض والأفلاك وما فيهن وما بينهن، وانتهاء بخلق الإنسان وحياته وأطواره ونشوئه ومماته وتلاشيه وإعادته حيا، وإثابته أو عقابه. والسنن الطبيعية في الحياة تلتقي بالسنن الروحية في القرآن، فمصدرهما واحد، وهو تلك القوة الخلاقة المبدعة المدبرة، وهي كما تستطيع أن تحكم الأمر فجأة كلمح البصر (وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر) (1) فهي كذلك تستمهل وتتدرج وفقا لمصالح الكون، وتنظيما لشؤون الحياة، وكان التدرج في نزول القرآن من هذا الباب. 4 ـ وما التدرج في نزول القرآن، إلا دليل من أدلة إعجازه البيانية، فما نزل منه لم يكن بادىء الأمر إلا سورا قصيرة وآيات متناثرة تناثر النجوم، وهو بهذا القدر الضئيل ينادي بالتحدي، فدل على إعجازه في ذاته مع محاولة تقليده ومضاهاته، سواء أكان جزءا أم كلا. فقليله معجز، وكثيره معجز، ولقد وقع هذا التحدي في مكة على هذا القليل فما نالوه، ووقع في المدينة وهو متكامل بنفس المنظور، وبناء على هذا التأسيس فقد كان التدرج في النزول مصاحبا لعملية الإعجاز، ودليلا من أدلتها الناطقة، وهو بعد مشعل هداية في السعي والعمل والمثابرة. _____ (1) القمر: 50.